رد على عوني بلال حول موضوع التحليل النفسي والادب:

لنخلخل بعض المسلمات فـ «الأنا ليست سيدة بيتها»!

حسن المودن *

«ردا على تعقيب الأخ الكاتب الفلسطيني عوني بلال على مقالتي: تطبيق الأدب على التحليل النفسي، أتقدم بهذه المحاولة اغناء للنقاش المعرفي وتوضيحاً للرؤى الجديدة الى مسألة التحليل النفسي والأدب»

كثيرة هي الدراسات التي وقفت عند هذه الثنائية: التحليل النفسي/ الأدب، ومن أهم ما صدر في العقود الأخيرة:

Mario Lavagetto,Freud a l epreuve de la litterature,Seuil,2002
Philippe Willemart,Au-dela de la psychanalyse,les arts et la litterature,Harmattan,1998 Paul-Laurent Assoun,Litterature et psychanalyse,Ellipses,1996
John Lechete,Writing and Psychoanalysis,Arnold,1995
Max Milner,Freud et l interpretation de la litterature,20 Tirale,Stde-cetv du Paris,1980
Jean Le Galliot,Psychanalyse et langages litteraires,Nathan,1977

وأقترح على القارئ الكريم الوقوف عند ثلاث دراسات معاصرة القاسم المشترك بينها أنها تغير النظر الى: فرويد، التحليل النفسي، الأدب، وتعيد بناء العلاقات القائمة بين هذه الأطراف، بما يسمح بفتح آفاق جديدة أمام فهمنا للنفسي والأدبي وما بينهما من علاقات.

الدراسة الأولى للناقد الفرنسي جان بيلمان ـ نويل، وهي تحت عنوان: التحليل النفسي والأدب، وصدرت طبعتها الأولى باللغة الفرنسية سنة 1978، وقد ترجمناه الى اللغة العربية، وصدرت الترجمة العربية عن المجلس الأعلى للثقافة بمصر سنة 1997. وأهمية هذا الكتاب تكمن في كونه أعاد قراءة فرويد، وأعاد فحص العلاقة بين التحليل النفسي والأدب بطريقة تجمع بين التاريخ والنقد، بمعنى أنه استحضر تاريخ هذه العلاقة من سيغموند فرويد الى جاك لاكان، ولم يكتف بالعرض التاريخي قدر ما قام بقراءة تاريخية تقويمية، انتهى من خلالها الى تقديم منهج جديد في النقد النفسي سماه «التحليل النصي» يسمح بالانتقال من الاهتمام بمؤلف العمل الابداعي الى تركيز النظر على العمل الأدبي نفسه.

ما يهمنا من هذا الكتاب في هذا المقام هو جوابه عن سؤال أساس شغل الكثير من الدارسين والباحثين: هل هناك علاقة بين التحليل النفسي والأدب؟

والدراسة الثانية عبارة عن مقالة مركزة جريئة تحت عنوان: «فرويد شاعر اللاشعور» لصاحبتها ليديا فليم، وهي تندرج ضمن عدد من الدراسات المعاصرة التي تحاول تصحيح النظر الى مؤسس التحليل النفسي سيغموند فرويد، موضحة أن كتاباته تشهد على أنه لم يكن مجرد طبيب أو عالم، بل انه كاتب وأديب أيضا. ونشير هنا الى اهتمام جاك دريدا بفرويد في علاقته بمشهد الكتابة، مركزا نظره على كل ما له في كتابات فرويد علاقة بالكتابة وتم اهماله في السابق.

وعلى أي، فقد اخترنا هذه المقالة لتجيب عن سؤال قد لا تستسيغه العقول التي بقيت سجينة صورة بنتها قراءات سابقة عن فرويد: هل يمكن اعتبار فرويد شاعرا؟

أما الدراسة الأخيرة، فعنوانها سؤال جريء انقلابي: هل يمكن تطبيق الأدب على التحليل النفسي؟ وهي للكاتب الفرنسي بيير بيار، وصدرت سنة 2004. فاذا كان المألوف أن يناقش المهتمون مسألة تطبيق التحليل النفسي على الأدب، فان مؤلف هذا الكتاب يقترح بالكثير من الجرأة قلب الأدوار واعادة بناء العلاقات والسخرية من الأذهان التي تستكين الى مسلماتها.

وقبل الانتقال الى التناول كل سؤال/ دراسة على حدة، بما يضيء العلاقة بين التحليل النفسي والأدب، ويعيد التفكير في اشكالية الأدبي والنفسي، نشير الى أن هناك من يقول ان الأدباء وأهل الأدب ليس لهم من التكوين ما يؤهلهم لاستعمال التحليل النفسي. فان كان القائل من أهل الأدب، نردّ على ملاحظته بالسؤال عما اذا كان من يقرأ النص الأدبي من منظور أسلوبي أو سيميائي أو تداولي يعرف حقيقة ما هي الرهانات الفلسفية والابيستيمولوجية التي تتحكم في المفاهيم التي يستعملها. واذا كان القائل من أهل التحليل النفسي، فاننا نرد بالقول ان المحللين النفسانيين يتحدثون أيضا في الأدب دون أن يكونوا من أهل الاختصاص، أي من أهل الأدب. ويضاف الى ذلك أن الأمر يتعلق هنا بمشروعية توسيع التحليل النفسي ليعم حقولا معرفية أخرى، وهذه مسألة خلافية قديمة، فتارة يعتقد أن التحليل النفسي ينحصر في كونه ممارسة لعلاج العصابيين، وتارة يعتقد أن خطاب المحلل النفساني تمكن ممارسته في مجال آخر غير المجال الطبي، ويكون هدفه ليس العلاج بل الفهم والتفسير. وقد تم قبول مبدأ التوسيع ومناقشته منذ بداية القرن الماضي من طرف فرويد نفسه وتلامذته، فالجمعية النفسانية الدولية المؤسسة سنة 1908 أكدت أن هدفها هو تعميق التحليل النفسي وتطويره باعتباره جوهريا سواء في تطبيقاته الطبية أو سواء في استعمالاته في العلوم الانسانية الأخرى.

1 ـ هل هناك علاقة بين التحليل النفسي والأدب؟

يمكن اختزال مضمون كتاب جان بيلمان ـ نويل ـ التحليل النفسي والأدب ـ في عناصر أساس، من أهمها:

ـ كشف المؤلف في مقدمة كتابه أهم ما يميز طرفي الثنائية: التحليل النفسي/ الأدب، فبيّن أن أهمية التحليل النفسي تكمن في خلخلته بعض المسلمات، وذلك بافتراضه أن «الأنا ليست سيدة بيتها»، ومعنى هذا أن هناك أشياء تفكر بداخل الأنا وتوجه أفعالها مع أفكارها دون حتى أن تحاط علما بحدوث بعض الظواهر. أما الأدب فعن طريقه نعي انسانيتنا التي تفكر وتتكلم، فيه يمكن للانسان أن يسائل نفسه وقدره الكوني والتاريخي واشتغاله الذهني والاجتماعي. انه لغة أخرى لا تقول فقط وبالضبط ما يبدو أنها تقوله، وكما أن النفسي ليس كتلة موحدة، فان الأدبي ليس رسالة تحمل معنى واحدا وواضحا، فالكلمات عندما تجمع بطريقة أخرى، فهي تكتسب سلطة الايحاء باللامتوقع والمجهول. وبهذا المعنى، فالقصيدة تعرف أكثر مما يعرفه الشاعر.

ان الأدب، يقول جان بيلمان ـ نويل، يقدم وجهة نظر حول واقع الانسان ووسطه وحول الكيفية التي يدرك بها الانسان هذا الوسط والروابط التي يقيمها معه. والتحليل النفسي يقدم نفسه بطريقة مماثلة: انه والأدب يشتغلان بالطريقة نفسها، فهما يقرآن الانسان في حياته اليومية وداخل قدره التاريخي، ويسعيان الى بلوغ حقائق بالحديث عن الانسان وهو يتحدث.

ـ قدم المؤلف في الفصل الأول الذي يحمل عنوانا دالا: القراءة مع فرويد، حججا كثيرة تكشف ولع فرويد بكل أنواع الأدب، وانتهى الى أن مؤسس التحليل النفسي قد كان قارئا كبيرا ونافذا للأدب، وقراءاته الأدبية هي التي سمحت له بالدخول الى مدرسة العباقرة في الأدب الذين سبقوه دون علم منهم الى طريق الاكتشافات النفسية الكبرى.

ويضيف المؤلف أن أهم اكتشاف في نظرية اللاشعور هو بيانها أن الفصل بين مختلف أنشطة الانسان قد كان فصلا اصطناعيا، فالحلم واللعب والأسطورة والملحمة والرواية والقصيدة ليست موضوعات منفصلة، لأنها من انجازات نفس اللاشعور (اللاشعور باعتباره نظاما لا تنظيما فرديا). ولأنها كذلك فمن المشروع أن يشتغل عليها نفس المفسر.

ومن هذا المنطلق، فالنص الأدبي بلا علم منه ولا قصد كتابة مرموزة يمكن فك سننها، أولا من أجل مساعدة المحلل النفسي على التحكم في مناهجه والتحقق من مسلماته النظرية بمراجعة قيمتها الكونية، وهذا مكسب حقيقي للمعرفة التي يملكها الانسان عن نفسه. وثانيا من أجل أن يساعد التحليل النفسي القراءة على تعيين بعد جديد للقطاع الجمالي، واسماع ذلك الكلام الآخر بحيث أن الأدب لا يحدثنا عن الآخرين فقط، بل وعن الآخر فينا.

ـ وبيّن المؤلف في الفصل الثاني من الكتاب، وعنوانه: قراءة اللاشعور، أن فرويد قد أدرك منذ وقت مبكر أن الحلم يمثل الطريق الملكي الى اللاشعور، ولذلك كان كتابه الأساس ـ الذي ألفه بمفرده ـ هو: تفسير الأحلام.

الا أن ما يجب أن يلفت الانتباه، يقول جان بيلمان ـ نويل، هو ما يلي: أولا، أن الحلم الذي يعالجه المحلل النفساني هو محكي ينتجه الحالم عندما يسترد وعيه، أي انه، بعبارة اللسانيين، ملفوظ سردي. وثانيا، أن الحلم يقدم نفسه باعتباره نصا تنسجه التمثيلات والانفعالات، لكنه ليس رسالة من أحد ما الى أحد آخر، ذلك لأن الحلم لا يتكلم ولا يفكر، وفرويد يشدد على أنه عمل، فالرغبة الموجودة فيه تتكلم من أجل ألا تقول شيئا، ومن هنا ينبغي أن نرى فيه قوة وشكلا، وأن يكون اهتمام المحلل منصبا على عمل الحلم الذي يقع بين الرغبة والمحكي. والنص الأدبي، كما يفهم اليوم، يتكون من هذا العمل وبه، فهو نص أصيل يقدم للقراءة خطابا من دون عنوان ولا قصد سابق ولا مستوى محدد.

ويخلص المؤلف الى ضرورة استثمار كتابات فرويد عن الحلم في قراءة النص الأدبي، نظرا الى التماثل القوي الموجود بين الاثنين. كما تبدو مهمة، في نظره، الاستفادة من كتابات فرويد الأخرى (وخاصة كتاب: سيكوباتولوجية الحياة اليومية، وكتاب: النكتة وعلاقتها باللاشعور)، لأن مؤسس التحليل النفسي ركز فيها على آثار اللاشعور على الخطاب، وكرس فيها اهتمامه لتحليل الظواهر التي تهم اللغة وحيلها وألاعيبها.

وينطلق المؤلف في الفصل الثالث، وعنوانه: أن يقرأ الانسان نفسه بنفسه، من أن الانسان عندما يقرأ العمل الأدبي فهو يقرأ فيه نفسه، ويحدث من خلال القراءة ما سجله فرويد في كتابه: ماوراء علم النفس، أي تفاعل لاشعور القارئ مع لاشعور آخر.

ويستحضر جان بيلمان ـ نويل مقالة مهمة لفرويد عنوانها: «الشاعر والخيال»، وفيها يجيب فرويد عن سؤال أساس: لماذا ينجح الكاتب حيث يفشل الحالم اليقظ الذي يحكي لنا أحلامه؟ ويجيب فرويد بأن الكاتب يقوم بتلطيف ما في الحلم من تمركز على الذات، ويغرينا بالاستفادة من لذة شكلية خالصة، ويحقق لنفسيتنا متعة تجد معها الخلاص من بعض التوترات.

ـ وفي الفصل الرابع، وعنوانه: قراءة الانسان، سجل المؤلف أن فرويد قد شقّ الطريق في مجال التحليل النفسي للأدب في اتجاه كل أنماط المقاربة: من قراءة الانسان الى قراءة العمل الأدبي أو الفني في حد ذاته الى قراءة كاتب ما أو فنان ما. وهو في قراءته الانسان انصب اهتمامه على تحليل الركائز الأساس التي ما ينفك الكتّاب والنصوص يستخدمونها ويستثمرونها بطريقة جديدة في كل مرة، وهي ليست وقفا على عصر أو لغة أو فرد ولا أصل لها لأنها تنتمي الى الرأسمال الرمزي للانسانية، أي أنها تقاليد غارقة في ليل الأزمنة، في ليل اللاشعور: الأساطير، الخرافات، المحكيات النموذجية، الأجناس والأشكال والأنماط والحوافز الأدبية.

ـ ووضح المؤلف في الفصل الخامس، وعنوانه: قراءة الكاتب الانسان، أن الخمسين سنة التي تلت نشر الأعمال الكبرى لفرويد لم يكن فيها الا محللون نفسانيون ركزوا على دراسة الأدب، وقد قاموا بذلك وهم يصبون اهتمامهم على الكتّاب والشعراء، وتوقف المؤلف عند أهم هؤلاء المحللين: رونيه لافورج، ماري بونابارت، دولاي، لابلانش، موري، فرناندیز...).

ـ وفي الفصل السادس والأخير، وهو بعنوان: قراءة النص، انتهى المؤلف الى أن قراءة النص تعني أن نقرأه بعيدا عن مؤلفه. وهناك بهذا الخصوص سابقة عند فرويد في كتابه: الهذيان والأحلام في غرادیفا ینسن، كما يمكن أن نستحضر قراءة لاكان لنص دراساته: محاولة أو ملاحظات أو مساهمة أو مدخلا... كأنه يفتح ورشا ليبقى دوما مفتوحا. وهو ثانيا يحاول أن يكتب شيئا لا مرئيا ـ اللاشعور ـ ويعلم أن تنزيل ذلك لغويا هو المشكلة الأعظمى، ومن هنا اهتمامه بالأدب، لأن الروائع الأدبية نجحت في كتابة هذا اللامرئي. وهو ثالثا يحاول أن يفهم كيف ينكتب اللاشعور في مجموعة من الظواهر والخطابات من أهمها الحلم، فتحدث عن النص الظاهر والنص الباطن، وركز انتباهه على آليات التكثيف والتحويل والتمظهر التي تتحكم في الحلم، فكان بذلك يخوض في مسألة أساس جعلته، في نظر جاك دريدا متقدما على عصره: انها مسألة استعارية الكتابة، فقد كان فرويد في نصوصه يسائل بنية المشهد النصي للحلم، مركزا نظره على الجسد التعبيري لا باعتباره مجرد ظاهر حامل لباطن ثابت، بل باعتباره جسدا استعاريا متعدد المعنى يستحيل سجنه في مدلول واحد ووحيد.

ولزيد من التوضيح، هل نستحضر أهم محلل نفسي بعد فرويد: جاك لاكان؟ ألا يمكن اعتبار هذا المحلل النفسي أحد أهم من استوعب الدرس الفرويدي، ليس لأنه أقام جسورا بين التحليل النفسي واللسانيات والنظريات الشعرية المعاصرة، ولا لأنه يعتبر الشبكة اللاشعورية مفتوحة بامتياز على كل المعاني، ولا لأنه يعتبر الأهم في نص اللاشعور هو قوة داله وغياب مدلوله، بل لأن كتابه الأساس في التحليل النفسي يحمل عنوانا شديد الدلالة: كتابات Ecrits، وهو كتاب افتتحه بقراءة عمل أدبي: قصة «الرسالة المسروقة» لادغار آلان بو.

3 ـ هل يمكن الانتقال من تطبيق التحليل النفسي على الأدب الى تطبيق الأدب على التحليل النفسي؟

3 ـ 1 ـ أقترح على القارئ الكريم كتاب بيير بيار:

Peut-on appliquer la litterature a la psychanalyse,ed Minuit,2004,Paris

هل يمكن تطبيق الأدب على التحليل النفسي؟ انه عنوان هجومي قوي، ذلك لأن العادة أن الناس تتساءل ان كان ممكنا تطبيق التحليل النفسي على الأدب، لا العكس.

والواقع أن ما يجعل هذا الكتاب قويا أن صاحبه الذي أصدر ثمانية كتب في الخمس عشرة سنة الأخيرة يأتي في كل كتاب بشيء مثير وغير منتظر، وتتميز نصوصه بخصائص لافتة للانتباه وضرورية للتفكير الحي المتجدد، ومن أهم هذه الخصائص:

ـ أن بيير بيار يجمع بين خاصتين جوهريتين: هو محلل نفساني Psychanalyste وأستاذ للأدب الفرنسي بجامعة باريس الثامنة.

ـ أصدر بيير بيار ثمانية كتب لفتت انتباه القراء والمهتمين والمختصين في التحليل النفسي والأدب، بمفاجئاتها واكتشافاتها ومراجعاتها للأحكام والمسلمات. ففي كتابه: من قتل روجيه أكرود؟ (1998)، وكتابه: هاملت: بحث وتحقيق (2002) كشف أن بعض الكتّاب قد يخطئون بخصوص مرتكبي الجرائم في أعمالهم، وهم بذلك يتركون المجرمين أحرارا! وفي كتابه: كيف نصلح الأعمال الأدبية التي أخطأت هدفها؟ (2000) فتح ورشا لاعادة كتابة الأدب، وحتى الكتّاب الكبار، في نظره، قد تصيبهم لحظات ضعف، والى الناقد يعود القيام مقامهم. وفي كتابه: الغد مكتوب (2005) يتساءل بيار: هل يستمد الأدب الهامه من الماضي فقط أم من المستقبل أيضا؟ هل كان ممكنا أن تسبح أعمال فرجينيا وولف في متخيل الماء والموت لو لم تستمد ذلك مما سيعلمه اياها انتحارها في المستقبل؟ أكان ممكنا أن يصف موباسان الحمق في بعض أعماله لو لم يقم هو نفسه في المستقبل بتجربة أليمة؟

وتكمن أهمية هذه الأسئلة في أنها، أولا، اعادة النظر في مفاهيمنا التقليدية التي تبقى سجينة مسلمة مفادها أن الأسباب تسبق بالضرورة النتائج، في حين نجد الأدب يقول العكس. دلالة أن ألبير انشتاين القادم من مجال آخر قد قال لفرويد في رسالة تعود الى 4 ايار (مايو) 1939 انه معجب بكتاباته من الزاوية الأدبية، فهو لا يعرف معاصرا آخر قدم موضوعه باللغة الألمانية بمثل كفاءة فرويد.

ـ قدم فرويد مشروعا في الكتابة، أي عمل كاتب، وهو يحيا في الفضاء الحميمي للكلمات، في سحرها وأصواتها وصورها. فهو أولا لا يقدم عملا كاملا وتاما، بل نجده يسمي دراساته: محاولة أو ملاحظات أو مساهمة أو مدخلا... كأنه يفتح ورشا ليبقى دوما مفتوحا. وهو ثانيا يحاول أن يكتب شيئا لا مرئيا ـ اللاشعور ـ ويعلم أن تنزيل ذلك لغويا هو المشكلة العظمى، ومن هنا اهتمامه بالأدب، لأن الروائع الأدبية نجحت في كتابة هذا اللامرئي. وهو ثالثا يحاول أن يفهم كيف ينكتب اللاشعور في مجموعة من الظواهر والخطابات من أهمها الحلم، فتحدث عن النص الظاهر والنص الباطن، وركز انتباهه على آليات التكثيف والتحويل والتمظهر التي تتحكم في الحلم، فكان بذلك يخوض في مسألة أساس جعلته، في نظر جاك دريدا متقدما على عصره: انها مسألة استعارية الكتابة، فقد كان فرويد في نصوصه يسائل بنية المشهد النصي للحلم، مركزا نظره على الجسد التعبيري لا باعتباره مجرد ظاهر حامل لباطن ثابت، بل باعتباره جسدا استعاريا متعدد المعنى يستحيل سجنه في مدلول واحد ووحيد.

ولزيد من التوضيح، هل نستحضر أهم محلل نفسي بعد فرويد: جاك لاكان؟ ألا يمكن اعتبار هذا المحلل النفسي أحد أهم من استوعب الدرس الفرويدي، ليس لأنه أقام جسورا بين التحليل النفسي واللسانيات والنظريات الشعرية المعاصرة، ولا لأنه يعتبر الشبكة اللاشعورية مفتوحة بامتياز على كل المعاني، ولا لأنه يعتبر الأهم في نص اللاشعور هو قوة داله وغياب مدلوله، بل لأن كتابه الأساس في التحليل النفسي يحمل عنوانا شديد الدلالة: كتابات Ecrits، وهو كتاب افتتحه بقراءة عمل أدبي: قصة «الرسالة المسروقة» لادغار آلان بو.

3 ـ هل يمكن الانتقال من تطبيق التحليل النفسي على الأدب الى تطبيق الأدب على التحليل النفسي؟

3 ـ 1 ـ أقترح على القارئ الكريم كتاب بيير بيار:

Peut-on appliquer la litterature a la psychanalyse,ed Minuit,2004,Paris

هل يمكن تطبيق الأدب على التحليل النفسي؟ انه عنوان هجومي قوي، ذلك لأن العادة أن الناس تتساءل ان كان ممكنا تطبيق التحليل النفسي على الأدب، لا العكس.

والواقع أن ما يجعل هذا الكتاب قويا أن صاحبه الذي أصدر ثمانية كتب في الخمس عشرة سنة الأخيرة يأتي في كل كتاب بشيء مثير وغير منتظر، وتتميز نصوصه بخصائص لافتة للانتباه وضرورية للتفكير الحي المتجدد، ومن أهم هذه الخصائص:

ـ أن بيير بيار يجمع بين خاصتين جوهريتين: هو محلل نفساني Psychanalyste وأستاذ للأدب الفرنسي بجامعة باريس الثامنة.

ـ أصدر بيير بيار ثمانية كتب لفتت انتباه القراء والمهتمين والمختصين في التحليل النفسي والأدب، بمفاجئاتها واكتشافاتها ومراجعاتها للأحكام والمسلمات. ففي كتابه: من قتل روجيه أكرود؟ (1998)، وكتابه: هاملت: بحث وتحقيق (2002) كشف أن بعض الكتّاب قد يخطئون بخصوص مرتكبي الجرائم في أعمالهم، وهم بذلك يتركون المجرمين أحرارا! وفي كتابه: كيف نصلح الأعمال الأدبية التي أخطأت هدفها؟ (2000) فتح ورشا لاعادة كتابة الأدب، وحتى الكتّاب الكبار، في نظره، قد تصيبهم لحظات ضعف، والى الناقد يعود القيام مقامهم. وفي كتابه: الغد مكتوب (2005) يتساءل بيار: هل يستمد الأدب الهامه من الماضي فقط أم من المستقبل أيضا؟ هل كان ممكنا أن تسبح أعمال فرجينيا وولف في متخيل الماء والموت لو لم تستمد ذلك مما سيعلمه اياها انتحارها في المستقبل؟ أكان ممكنا أن يصف موباسان الحمق في بعض أعماله لو لم يقم هو نفسه في المستقبل بتجربة أليمة؟

وتكمن أهمية هذه الأسئلة في أنها، أولا، اعادة النظر في مفاهيمنا التقليدية التي تبقى سجينة مسلمة مفادها أن الأسباب تسبق بالضرورة النتائج، في حين نجد الأدب يقول العكس.

وتعلمنا ثانيا أن دراسة بيوغرافية الكتّاب تفترض أن ليست الحياة وحدها هي التي تحدد العمل الأدبي، بل ان العمل الأدبي قد يحدد الحياة أيضا.

ـ استطاع بيير بيار أن يؤسس له أسلوبا خاصا، ومن أهم سماته: التفكير في المفارقات والميل الى البحث والتحقيق والسخرية. وهو يقول ان منهجه غير فاعل وغير اجرائي، وهنا خاصية أخرى في أسلوبه: الميل الى الفشل واخطاء الهدف والخطأ والافلاس، وهذه خاصية سمحت له بالاشتغال على النصوص بطرق مختلفة، فقد يكون هذا الاشتغال تعديلا للنصوص كما في بحثه حول هاملت، وقد يكون تصحيحا وتنقيحا كما في كتابه عن بروست، وقد يكون تغييرا كاملا للنصوص كما في كتابه حول الأعمال الأدبية التي أخطأت هدفها.

3 ـ 2 ـ بيير بيار مختص بالذات في علاقة التحليل النفسي والأدب، وهذا ما يفسر لماذا يجمع أسلوبه بين الجد واللعب، كيف يقلب العبارات من أجل لا بناء منهج جديد يدعي الكمال ويطمح الى الهيمنة، بل من أجل فتح آفاق جديدة للتفكير في الأدب بسخرية لاذعة لا تؤمن كثيرا بالأسس التي يقوم عليها النقد أو النظرية.

وبغير قليل من السخرية، يقدم بيير بيار نظرية جديدة: تطبيق الأدب على التحليل النفسي، ويمكن اختزال مضمونها في عناصر أساس، من أهمها:

ـ لاحظ بيير بيار بأن النقد الأدبي الذي يطبق التحليل النفسي قد أصابه الافلاس، ويعود السبب في ذلك الى أن تطبيق التحليل النفسي على الأدب يؤكد النظرية التي تمّ الانطلاق منها، ولا يضيء العمل الأدبي. وبالعكس، اذا تم الاعتماد على منهج يقلب الأشياء، يكون بامكان الأدب أن يقول أشياء عديدة للتحليل النفسي.

وبعبارة أخرى، فالفكرة الأساس عند بيير بيار أنه ليس من الملائم تعنيف النصوص واسقاط تأويلات عليها، بل لابد أن نعمل من أجل أن تمتد معانيها فينا، وأن تنطلق منها عناصر معرفة جديدة.

ـ فسر بيير بيار أن المعرفة الانسانية حول الجهاز النفسي لم تكن مسارا بطيئا عرف انطلاقته القوية في القرن التاسع عشر، وخاصة في أواخره مع فرويد، كما يعتقد البعض. وقد حان الوقت في نظره لاعادة قراءة ما «قبل» التحليل النفسي، وفي هذا الاطار أصدر بيار كتابا مهما سنة 1994 عنوانه:

Maupassant,juste avant Freud,ed Minuit,1994,Paris

وفي هذا الكتاب يقرأ المؤلف فرويد بمساعدة موباسان، ويقوم باكتشاف الامكانات النظرية التي يمكن أن توجد في فعل الكتابة نفسه، ويعلمنا في هذا الكتاب وفي كتب أخرى كيف نعيد بلذة جديدة اكتشاف هوميروس وسوفوكل وشكسبير وموباسان وهنري جيمس.

بالنسبة الى بيير بيار، اذا أردنا الاستمرار في انتاج الفكر حول الذات أو حول العلاقات بين الكائنات الانسانية، فان سؤالا أساسا يفرض نفسه: كيف الخروج من نظام تفكير التحليل النفسي؟

ويذهب بالسؤال بعيدا، فيتساءل: كيف الخروج من التحليل النفسي ليس بالرجوع الى الوراء، بل بالتوجه نحو المستقبل؟ والجواب الذي يقترحه هو: الأدب. بمعنى أنه يقترح تطبيق الأدب، على الأقل في أعماله الكبرى، في دراسة الجهاز النفسي. فالأدب، في نظره، ينتج، بطريقته الخاصة، مفاهيم، واذا عدنا الى أعمال باسكال وسرفانتس وفلوبير وبروست وفاليري وبروتون وناتالي ساروت وموباسان وبورخيس. ويعطي بيار أمثلة مهمة عن المفاهيم التي يمكن استخراجها من الأعمال الأدبية. ويؤكد على أن قوة النماذج الأدبية تعود الى ضوئها الهارب، واستبدال المفاهيم بالكلمات، وعدم دقتها النظرية، وهي في الواقع لا تحتوي الا على ممكنات أو مقاطع نظرية تستلزم مشاركة قرّاء قادرين على ابراز هذه العملية الأولية التي تسبق عملية التنظير، والتي انطلاقا منها يفكر الأدب ويدفع الآخرين الى التفكير.

وبمعنى آخر، من أجل أن نجعل من النماذج الأدبية نسقا منافسا للنموذج الفرويدي، لا بد من تحويل الكلمات الى مفاهيم، وهو ما يعني استيلاد التحليل النفسي من الأعمال الأدبية نفسها.

*كاتب من المغرب

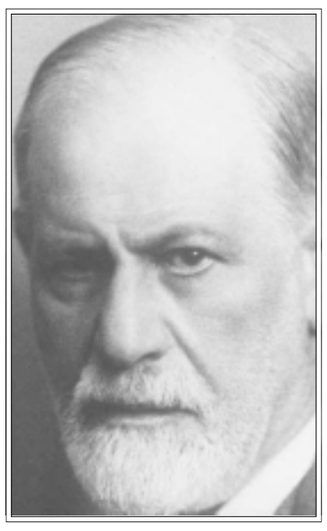
سيغموند فرويد

ليدا فليم

الطيب صالح

تداعيات

يوميات سؤال متطرف!

محمد صبيح*

■ السؤال المتطرف يرمي شباكه في طريق العودة نحو البيت كعامود الكهرباء على مربع افكاري وزوايا منزلقاتي..
ثم ينشرني كبقايا طائرة ورقية على امعائه السلكية..
ذات السؤال منذ عشرة شتاءات ونصف هي عمر الأزمة المغناطيسية في ايدولوجيا الظرف الدقيق والمنعطف التاريخي!
صديقي في المقعد منذ ثلاثين راكبا وحافلة مليئة ببقايا الطبقة الوسطى واعقاب السجائر كالديدان في المنافض الحبلى...
المنتصب الوحيد في لحظة الاياب المرتخية بين فخذ العاصمة وكاحل المدينة التي اقصد.. اقصد مدينتي تلك التي اعرفها منذ اربعين سعالا وغبارا نوويا في فضاء المكاره وشظايا القنبلة الديمغرافية!
مدينتي والسؤال الذي ينمو واياها كالفطر على هامش الإنتاج وبغض النظر «عن ارتفاع نسب التسرب المدرسي والتلوث البيئي» وباختلاف المنابع والفصول يبقى السؤال المتطرف يرسمني فائضا للقيمة رغم حفرة الانهدام القائمة ما بين المركز والأطراف ورغم قانون الأحوال الشخصية.. وأزمة التعداد السكاني.. ونسبة الانحراف وميل الأفراد الى العنف ومن كل الأطراف!

السؤال المتطرف ما زال بجيب قميصي.. ماذا افعلُ؟
اطويه مع الصحيفة وادسه في ثقب التحليل السياسي في العامود اليومي... القيه في سلة المهملات «المهملة»
.....
.....
انا احافظ على نظافة مدينتي من الأوساخ والأوهام ومن الأحقاد الطبقية.. فيما مضى
كنت.. ماركسيا عنيدا اسقي الفولاذ دمي لكي يتحول الكم الى كيف.. لا تسألوني كيف!
فالنظرية لم تترك شيئا من نمط الانتاج الآسيوي الى فوازير الثورة الوطنية الديمقراطية.. وهكذا كنت اغوي الطبقة العاملة الى سرير الحزب ولكن المركزية الديمقراطية وللأسف البالغ لم تقذف في المؤتمر الوطني سوى رغوتها الثورية... فكان ان انتصرت التهابات الاقطاع الأول وشرائح «البيك برغر» ودهنيات التكفير على كريات الدم الحمراء مما اسماه صديقي الشاعر النطاسي البارع «حيدر» فشلا كلويا حادا في الجانب الأيسر من بطن التاريخ!»
ولكني اليوم وبكامل هندستي المدنية اهرب من هذا المتطرف الذي يلاحقني في شوارع المدينة مثل مخبر نشيط اواخر الثمانينات من القرن الماضي...!
وها هو مرة اخرى في منتصف الليل كنوبة ربوٍ في حضرة سمو الرطوبة يدخلني..
أزيح وجهي عنه الى صندوق النوم يداهمني في الكابوس الليلي كفاتورة النفط وهي تقضم حلمة الزيادة الحكومية...
أتمدد في قارورة العرق الوطني واشرد في الغيم كآهة «وزير التنمية السياسية» وهو يلهو بالأحزاب ومؤسسات المنتجع الوطني.
السؤال المتطرف ما زال يا اخي القارئ يا اخي المستمع المستمتع مثل المنخفضات وورشات العصف الفكري ونوبات الاصلاح صباح مساء يداهمني...
وأنا يا أخي القارئ يا اخي المستمع المستمتع «يا شبيهي»..
أنا الآن مواطن جد صالح.. واصلح لأشياء عديدة
فأنا مثلا
ليبرالي كنقطة ماء، بسيط كحبة «فاليوم»
واضح كحفرة في الطريق العام
ومهذب كمذيع نشرة الأخبار وهو ينصب الفاعل ويثقب المفعول به
أنا يا عزيزي القارئ يا «شبيهي»
مسالم.. طيع.. كدجاج البائع عشية الجمعة الدامية
ولين كنائب يطارد ناموس الامتيازات تحت القبة!
ومنفتح كفرّجار على كل الأفكار والاقتراحات
ولكن السؤال المتطرف لا ينفك يراودني عن نفسي...
والنفس امارة بالسوء يا شبيهي
يا اخي القارئ والمستمع المستمتع يا شبيهي
ادعُ لي وندعو جميعا ان نرى برهان ربنا قريبا
ويا ايها السؤال المتطرف «اني اعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا»! صدق الله العظيم

*شاعر من الأردن
الزرقاء أواخر شباط (فبراير) 2006

في قصائد من 40 عاما.. عن أمريكا وفيتنام وهتلر واسرائيل

■ القاهرة ـ من سعد القرش ـ رويترز: رغم مرور أربعين عاما على صدور ديوان شعر للالماني اريش فريد فان كثيرا من قصائده لاتزال تحمل وهج الشعر وطزاجته كأنها تتحدث عن المشهد العالمي اليوم من حيث ثنائية الحق ـ القوة مع تغيير بسيط في أحد طرفي المعادلة باستبدال العراق بفيتنام.

واختار فريد أن يكون عنوان ديوان وفيتنام ومتعمدا عدم اكمال الجملة كي يمنح القارئ مساحة لان يتخيل أن التدخل العسكري غير المتكافئ للولايات المتحدة في فيتنام ليس الاول ولن يكون الاخير.

وتنتمي القصائد الى الشعر الانساني المهموم بقضايا تتجاوز اللحظة التاريخية والحدث المباشر الذي يؤرق الشاعر القادر على تقطير خبرته ورؤيته في ألفاظ قليلة ذات دلالة كما في قصيدة «ناقلم» التي ينتهي بها الديوان وتقول.. «أمس ابتدأت في تعلم الكلام. اليوم ـ أتعلم الصمت. غدا ـ سوف أتوقف عن التعلم».

والترجمة العربية الاولى للديوان أنجزها الشاعر المصري يسري خميس وصدرت عن المجلس الاعلى للثقافة في 125 صفحة متوسطة القطع.

ويلح فريد في قصيدة «حواديت مرعبة» على فكرة بحث القوي عن منطق أخلاقي يبرر به لنفسه تحويل الاخرين الى شياطين تمهيدا للتخلص منهم باعتبارهم هم الجحيم «اكل لحوم البشر ـ لا يأكل سوى أعدائه ـ فعندما يريد أن يلتهم أحدا ـ يجعل منه عدوا أولا ـ ثم يلتهمه. وبعد قضمة أو قضمتين ـ يتحول كل الذين التهمهم الى أعداء».

وفي القصيدة نفسها يصبح الاخر المستباح مجرد رقم لا حرمة لروحه أو جسده حيث ان «اكل لحوم البشر ـ لا يحب أن يأكل بني وطنه ـ لذا يذهب حتى اخر العالم ـ حتى يشبع نهمه. اكل لحوم البشر ـ حنون القلب ـ فهو يهتم بكل من يرسلهم ليأكلوا حتى يشبعوا ـ وهو يرى أن الاعداء جبناء تنقصهم الشجاعة ـ فهم يقتلون رجاله الذين جاءوا لاكل اللحم البشري ـ من الخلف. لذلك يجمع صورا لما حدث لرجاله».

وقال خميس في مقدمة ان فريد (1921 ـ 1988) ولد بالنمسا واضطر للهجرة الى بريطانيا «بعد الغزو النازي واضطهاد أسرته اليهودية وقتل أبيه على يد الجستابو «الجهاز السري للنظام النازي». ومنذ عام 1946 عاش ككاتب حر في لندن... ويعتبر مع الشاعر هانس ماجنوس انتسنسبرجر ممثلا للشعر السياسي الالماني في أعلى مراحله بعد الحرب العالمية الثانية».

وأضاف أن فريد كان مشاركا في العمل السياسي المباشر من خلال المحاضرات والمظاهرات المناهضة للغزو الامريكي لفيتنام كما طالب «بمحاكمة ليندون جونسون رئيس الولايات المتحدة الامريكية «الاسبق» كمجرم حرب في فيتنام». وأرسلت الولايات المتحدة مئات الالوف من جنودها الى فيتنام في مطلع الستينيات وجربت قواتها معظم الاسلحة باستثناء القنابل النووية لكنها فشلت في التصدي للثورة الشعبية وحرب العصابات حتى اندحر الغزو الامريكي عام 1972.

وفي احدى قصائد الديوان يقول فريد «ليس معقولا أن يقوم الامريكان ـ بحرق الاطفال الفيتناميين دون ضرورة. لقد قام هتلر أيضا بحرق الاطفال. ليس في فيتنام لكن في مكان أقرب. لماذا ننزعج عندما يفعل الامريكان نفس الشيء.».

في اشارة الى مساواة النظام الامريكي بالنظام النازي.

وفي رأي مترجم هذا الديوان أنه في قصائد فريد «لم يصبح الشعر تقريرا بل أصبح التقرير شعرا... ما يعني الشاعر هو تثبيت اللحظة وتعرية ما